خارجية ادخلت المنطقة في الصراع الدولي ، وتعمقت بالتالي مخاوف الجانب العربي إزاء التوسع الاسرائيلي وخاصة بعد عام ١٩٦٧ ، واصبح لزاما عليه البحث عن طريقة — قد تكون حرب الفدائيين — لارغام اسرائيل على سحب مكاسبها الاقليمية بدون مفاوضة واعتراف بوجودها ، وتمسكت اسرائيل من جانبها بمكاسبها مما زاد صعوبة التوصل الى حل . يحاول ناشرا الكتاب الخروج من هذه المعضلة باستنتاجات الفصل الاخير والقائمة على ضرورة حل المشاكل المادية المعلقة بين الطرفين — وبمساعدة قوى السلم في الخارج — كوصول اسرائيل الى البحار الجنوبية ، وتوزيع مياه الاردن ومشكلة القدس واللاجئين التي تربط عادة بمشكلة الحدود ، فيضمن العالم بذلك عدم تفجر النزاع في حرب جديدة ويتمكن العرب واليهود من التعايش . ولا يوضح الكتاب لنا حقيقة أساسية : وهي ان النزاع لم ينجم عن مجرد تصادم مصالح بين دولتين او من اعتبارات مادية ضيقة ، كما يحدث عادة بين الدول وانه خلاف جوهري وعميق حول وجود اسرائيل في منطقة الشرق الاوسط ، بل ان المشكلة اعمق: من له حق السيادة في فلسطين ؟ والكتاب الثاني هو ترجمة انكليزية لكتاب بنفس العنوان بالعبرية (١٩٦٤) بعد تعديل الفصل الاخير لتغطية الاحداث المعاصرة . وبرأي المؤلف ان اول خطوة نحو ايجاد طريق لتسوية النزاع العربي اليهودي هو الكشف عن جذوره وتتبع تطوره بدرجة من النقد الذاتي ، واعتبر ان الكتاب — كما جاء في مقدمته العبرية « حلقة في سلسلة الجهود التي بداها العرب واليهود .. منذ سنوات لتحقيق السلام بين شعبين مصيرهما مرتبط بشكل حتمي ». وعاش المؤلف كشاهد عيان لتجربة فئة يسارية داخل الكيبوتز عملت من اجل التقارب العربي اليهودي فتوفرت له الوثائق العامة والشخصية ، الا ان الكتاب كعمل تاريخي ليس له قيمة اذ استطاع بخطة بارعة ان ينتقي من الحقائق ما يؤكد وجهة نظره الاساسية . ويبرر « مارتن بوبر » ذلك في تقديمه الكتاب « بأن عرض الجانب العربي بنفس الدرجة من الثقة التي عرض بها الجانب اليهودي يقتضي ان يكون الكاتب عربيا تعرف على الحياة العربية بعمق » .

الفكرة الاساسية التي تدور حولها مادة الكتاب الضخمة في قسمه الاول هو : هل كان النزاع العربي اليهودي محتما ؟ وهل ان مصالح وأماني الشعبين غير متفقة ؟ ثم من هو المسئول بصورة رئيسية عن تردي العلاقات العربية اليهودية ؟ يحاول المؤلف بطريقته الخاصة ان يثبت ان مصالح الحركتين غير متناقضة ، وان الارض تكفي لتحقيق أماني الشعبين وتعاونهما في جميع المجالات ، ويستدل بشواهد عديدة — معتمدا في كثير منها على كالفارسكي الشخصية الرئيسية التي استند عليها لدعم وجهة نظره — ان بوادر الشك بين الشعبين تعود الى عدم فهم المهاجرين اليهود البيئة الجديدة واستخفافهم بقوة الحركة العربية كعامل سياسي له خطره في طريق المشاريع الصهيونية ، وحجتهم ان الفوائد الاقتصادية التي تنجم عن الهجرة كفيلة بازالة كل هذه العراقيل ، ولذلك ركز قادة الحركة الصهيونية اهتمامهم على الدولة العثمانية ثم على بريطانية لكسب الدعم والتأييد . ويرى كوهين مع ذلك ان العرب واليهود لو تركوا وحدهم كان باستطاعتهم الوصول الى تفاهم متبادل وان حركة البعث القومي اليهودي كان بامكانها ان تندمج بطريقة سلمية مع الحركة القومية العربية في الشرق الادنى ، وان المصالح العثمانية ثم البريطانية قد وقفت في وجه كل محاولة للتفاهم والتقارب . ويستعرض كوهين كل هذه المحاولات التي كان يتولاها بين حين وآخر بعض قادة الحركة الصهيونية ثم فئة من المثقفين من الجناح اليساري في الحركة الصهيونية التي تبلورت جهودها بايجاد واجهة موحدة هي « عصبة العمل للتقارب والتعاون العربي اليهودي » عام ١٩٣٩ ، ووصفت فكرة الدولة ثنائية القومية على اساس المساواة السياسية للشعبين وعدم سيادة احدهما على الاخر بغض النظر عن نسبتهم العددية ، الا ان هذه الحركة لم تلاق دعما شعبيا او رسميا ، وتأييد برنامج بلتيمور قد احبط كل امكانية للاتفاق ، واضاعت الزعامة الصهيونية بذلك آخر فرصة للوصول الى تفاهم . ولدينا هنا سؤال واحد : ترى لو ان قادة الحركة الصهيونية قد تجنبوا الاخطاء التي آخذهم عليها كوهين هل كان بالامكان تجنب النزاع والحصول على سلام مع العرب ؟

في محاولة المؤلف تلمس حل للمشكلة في الفصول الاخيرة من كتابه متمسكا بحبه « للسلام ومصلحة الشعبين » لان البديل عن «التعاون» هو «الفناء»، نجده لا يوضح اسباب انقلابه المفاجيء من تصير